**بحوث في اللغة العربية**: نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات بجامعة أصفهان

**العدد ٢٤ (ربيع وصيف ١٤٤٢هـ / ١٤٠٠هـ.ش)، ص ١٦٩ ـ ١٨٤**

**المقالة: محكمة**

# دراسة فنية دلالية لخواتم الآيات في سورة آل عمران[1]

جلال مرامی *

بيژن كرمی **

حسن ساقی ***

**الملخّص**

قد يُحدَّد في الخاتمة موضوعُ الآية، باعتبار أنّ الخاتمة بؤرة توحّد الآية، وتكون فكرتها العامة أو هي المركز الذي تدور حوله الآية، وتعدّ نواة مضمون الآية، حيث تجمع الخاتمة مسار الأفكار القائم على موضوع أو عدة موضوعات في الآية. ويمكن أن نعد قدرة الآية في الخاتمة على تذكّر عناصر فنية معينة ونظمها أكثر من غيرها، إشارة إلى أنّ العناصر التي تحملها الخاتمة، تمثّل موضوع الآية في بنية تختلف من الناحية الشكلية عن سياقها، وتختلف كيفية بنائها عند كل آية؛ لأن كل آية تختار من بنية العناصر التي تناسبها. فيكون من المجدى في القضية، أن نتدبر الخواتم القرآنية ونهاياتها؛ لنرى أنها تأتي لمقتضيات معنوية، مع نسَق فني اقتضته المعاني. إذن، لا بدّ من الإشارة إلى أن التغير في ساحة الخواتم وألفاظها وتراكيبها يؤثّر على توليد المعاني الهامشية التي يدركها المتلقي الفَطِن. هذه المقالة محاولة من خلال المنهج الوصفي ـ التحليلي، لدراسة البناء الفني في خواتم آيات سورة آل عمران. تدلّ النتائج على جمال فني في الخواتم للمبالغة أو الدلالة على الثبات والديمومة وما شاكل ذلك، حيث تلتقي الألفاظ والمعاني في نهايات الآيات التقاء متمازجا في إطار نظام فني خاص؛ لتشكل عبارات ترتبط بسياقها، كما تشير النتائج إلى أنّ لكل خاتمة نظاما بنيويا خاصا يتناسب مع الغرض الأدبي للآية.

**الكلمات المفتاحية:** سورة آل عمران، البناء الفني، الخاتمة (الخواتم)، الدراسة الدلالية، الانزياح

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

---

١ــ تاريخ التسلم: ١٣٩٦/٣/١١هـ.ش؛ تاريخ القبول: ١٣٩٩/٥/٧هـ.ش.

* أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي، طهران، إيران Email: jalalmarami@yahoo.com

** أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي، طهران، إيران Email: karami-b@atu.ac.ir

*** طالب الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي، طهران، إيران (الكاتب المسؤول) Email: hasansaghi320@yahoo.com

Copyright©2021, University of Isfahan. This is an Open Access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution License (http://creativecommons.org/licenses/BY-NC-ND/4.0), which permits others to download this work and share it with others as long as they credit it, but they cannot change it in any way or use it commercially

HTTP://DX.DOI.ORG/10.22108/RALL.2020.104521.1043

**١. المقدمة**

إنّ القرآن يحسن اختيار المعنى ويحسن تصويره من المعاني بألفاظ أو أشكال جيدة. فالنص القرآني هو الصورة، أي مظهر من مظاهر المعاني أو اللغة الأدبية؛ ولكي يصل المتلقي إلى جماله الفني والأدبي، عليه أن يقصد البلوغ في النحو والبلاغة. إن الخواتم جمالية وتكملة؛ لأنها تابعة للمعاني؛ إذ يكون الغرض هو الإبانة عن المعاني التى الحاجة إليها ماسّة؛ ولأنّها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها فى أحسن صورة يدلّ بها عليها. وتتجلّى الخواتم القرآنية بدلالتها المعنوية الدقيقة ونسقها الجميل.

الخاتمة في بعض وظائفها تلخّص معنى الآية، وهي إيضاح وتعقيب في أحيان أخرى؛ ويرتبط بناؤها بسياق الآية على مستويين: مستوى فني، وأدبي يدخل في نسيج التركيب فيقويه، ومستوى دلالي يفيد في إحكام الترابط بين أجزاء الآية. تمثّل الخاتمة القرآنية التزاماً بصيغ فنية وتراكيب جميلة رُوعيت في بناء الكثير من الجمل والآيات القرآنية.

سورة آل عمران سورة مدنية وسورة ثالثة في ترتيب السور. هذه السورة متفردة في خواتمها وأسلوبها، وهي مثال واضح عن البلاغة القرآنية، وبراعة النظم، وهي تقسّم كغيرها من السور، إلى الآيات المتنوّعة داخلها، وإلى تعدد العبارات داخل كثير من آياتها كالخواتم، وذلك يعطي البناء الهندسي في القرآن خصوصيّته، وهو من دلائل الانسجام الدلالي فيها؛ لأنّ تقسيم السور إلى أجزاء وفصول يدلّ على نظم وترتيب خفي بني عليه هذا النص الفني، وتجري إليه الآيات حتى تنتهي في خواتم الآيات وفي خواتم السور؛ فهناك بناء محكم وهندسة وتصميم نهائي في النص فنيا ودلاليا.

**١ـ١. أسئلة البحث**

إنّ الأسئلة التي نطرحها ما يلي:

ـ هل تنتهي الآي القرآنية في سورة آل عمران بعبارات فنية، وإنْ كان الجواب إيجابيا، فما أدواتها ودورها؟

ـ كيف توضّح هذه الأدوات، رموز أدبية الخواتم؟

ـ كيف يؤثّر الانزياح على فنية خواتم الآيات ودلالتها؟

**١ـ٢. خلفية البحث**

احتلّت الدراسات القرآنية حيزاً واسعاً من المكتبة العربية، وحظيت سورة آل عمران بدراسات عديدة. لكنّ هذه الدراسات اقتصرت على جانب الدلالة والجانب التفسيري أو جانب واحد؛ وربّما انحصرت هذه الدراسات على الصفات الإلهية لغوياً ودلالياً وتوقّفت عند الحرف الواحد أو اللفظة الواحدة، دون توسيع البحث إلى جمل الخواتم ونظامها، ولم تكن هناك دراسة مستقلة تعنى بدلالة هذا النظام وجماليته، ولم يقم أحد بدراسة الخواتم ونظامها الفني بصورة مستقلّة في سورة آل عمران وسور أخرى، باعتبار أنّ الخواتم بؤرة لعناصر فنية معينة وتنظيماً أدبياً ودلالياً لجو الآيات.

وأمّا بالنسبة إلى الدراسات المرتبطة بهذا الموضوع، فهناك دراسات أسلوبية وأدبية، منها: *الأسلوبية الصوتية في الفواصل القرآنيه*، لعمر عبد الهادي عتيق؛ *والإعجاز البياني في نظم خواتم الآيات والتنغيم الصوتي في القرآن الكريم: سورة الزمر نموذجا* لزهر الدين الرحماني؛ *والإعجاز الصوتي في القرآن الكريم* لعبد الحميد هنداوي؛ *والانسجام الصوتي في النص القرآني* لتحسين فاضل عباس؛ وكذلك *جملة الخاتمة في الآيات الكونية والإنسانية: دراسة أسلوبية*، لنور هاني محمد سمحان؛

*والمناسبة بين الفاصلة القرآنية وآياتها في سورتي الأحزاب وسبأ* لمحمد يوسف هاشم السيد؛ *ونظام الارتباط في سورة آل عمران* لمفيدة بنو ناس؛ *ونظام الجملة الشرطية في سورة آل عمران*، للأخضر سعداني؛ وجم*الية الانسجام الصوتي في خواتم سورة آل عمران* لحسن ساقي.

جاءت هذه الدراسة، وهي الدراسة الأولى التي تختصّ بدراسة دلالية على أساس خاتمة الآية؛ لتسلّط الضوء على جانبٍ لم يعن به أحد من الباحثين من قبل، حيث لم تكن دراسة أشارت إلى أدبية الخواتم، أي الجملات الأخيرة في آيات سورة آل عمران.

## ۲. ما هي الخاتمة؟

تكون الخاتمة من مادة "ختم"، وهي بلوغ آخِرِ الشيء (ابن فارس، ۲۰۰۸م، مادة ختم). وجاء في *لسان العرب*: خـتم الشـيء يختمـه ختماً بلغ آخرَه، وختَم الله له بخير. وخواتم كل شيء وخاتمَته: عاقبته وآخِره. واختتمتُ الشيء: نقيض افتتحته. وخاتمـة السـورة: آخرها (ابن منظور، ۱۹٦۸م، مادة ختم). وهي كالفاصلة في القرآن، ولكنها هنا عبارة قصيرة أو طويلة تختم بها الآية، ولها قيمتهـا فـي إتمام المعنى، وهي مستقلة نحوياً إسنادياً، لكن مرتبطة بآياتها تمام الارتباط دلالياً؛ ولها دور أساس في فهم آياتها والوصـول إلـى المعنى المطلوب الظاهر أو الخفي في آياتها.

من الملاحظ أنّ معظم الدارسين عند شرح النصوص القرآنية يقومون على تعريف "الفاصلة"، بأنّها الكلمـة التـي تخـتم بهـا الآية من القرآن؛ ومن ثمّ نؤثر أن نمضي على تسمية روؤس الآيات ومقاطعها في القرآن بـ"الفواصل"، ونسمّي الجملات المتناهية في داخل الآيات أو نهاياتها، بـ"الخواتم".

فإنّ الخاتمة هي الجملة التي يختم بها آخر الآية القرآنية، وكثيراً ما هي مرتبطة بما قبلها ارتباطاً وثيقاً، وفيها ملخّص للآية. لقد سميت الخاتمة بهذه التسمية؛ لأنّ الآية تختم عندها، وربّما آخر الآية ينتهي بها ويتمّ معناها. وينطوي بنـاء الخـواتم غالبـاً علـى التنويع، مراعاة للمعاني، وإزالة الرتابة؛ وتكون هذه الفضيلة من أساليب آيات القرآن.

## ۳. أنواع بناء الخاتمة

من أهمّ الخصائص التي تميزت الخواتم عن السياق، أنّها جمعت بين الوفاء بالمعنى في أقلّ الألفاظ في أجمل التعابير، فجُعلت خواتم الآيات، حسن الأسلوب، معبّرة عن صفات الجمال والجلال الإلهية، مشعرة بالتمام حتى تتحقّق الآيات بحسن الختام، فينبغي أن تقطع من السياق؛ إذ الخاتمة آخر عبارة تبقى في الأسماع، وتؤثر في الأذهان تأثيرا أكثر، وربّما تحفظ من بين سائر العبارات في الآيات لقرب السماع به، وتجري مجرى الحكم والأمثال.

### ۳ـ۱. اسمية الخواتم

جاءت خواتم الآيات في أغلبها جملة اسمية يكون المسند إليه فيها اسم، وكذلك المسند؛ والجملة الاسمية تأتي على أساس ثبوت المسند للمسند إليه غير مقيّد بزمن، ولكن الجملة الفعلية هي التي يكون فيها المسند فعلاً، تفيد الاستمرار والتجدد؛ والسبب أنّ الفعل إمّا يكون مقيّداً بالزمن الماضي أو المضارع أو المستقبل، ولكنّ الاسم والوصف الاسمي غير مقيّد بزمن. «وأمّا كونه فعلاً فللتقييد بأحد الأزمنة الثلاثة على أخصر ما يمكن مع إفادة التجدد، وأمّا كونه اسماً فلإفادة عدم التقييد والتجدد» (الخطيب القزويني، ۲۰۰۳م، ص ۷۵).

في الخواتم التالية: ﴿... وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديـر ۞ ... وَاللهُ رَؤوفٌ بِالْعِبادِ ۞ ... وَاللهُ غَفُورٌ رَحيم﴾ (آل عمران ٣: ٢٩ ـ ٣١)، بُنيت العبارات على الجملة الاسمية. وفي ذلك فائدة ليست في الجمل الفعلية؛ لأنّ الجملة الاسمية يقصد بها ثبوت المسند للمسند إليه. ففي هذه الخواتم، دلالة على أنّ الجملة الاسمية تفيد ثبوت القدرة والرأفة والغفران والرحمة لله تعالى؛ وهي أي الجملة «الاسمية أكثر ملائمة للمدح والذم ولوصف الأشياء الجامدة والحقائق الثابتة» (فاضلي، ١٣٧٦هـ.ش، ص ٧١).

فإنّها أدلّ على الدوام والاستمرار، فإنّ التعبير بالجملة الاسمية أشد تأكيدا، من حيث نسبة المسند إلى المسند إليه، ومن حيث أنّها تدلّ على ثبوت الصفة. تدلّ الجملة الاسمية على الثبوت، إذا كان المسند اسما؛ لأنّ «الاسم موضوع على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدُّده شيئا بعد شيء؛ وأمّا الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدّد المعني المثبت به شيئا بعد شيء» (الجرجاني، ١٤٠٤هـ، ص ١١٨). وهذا هو الذي عليه أغلب الخواتم على وجه الثبوت والدوام.

لا تستقرّ المعاني الجليلة في النفوس بناء على أساس الجمل الفعلية، كما هو عليه البناء القرآني في الخواتم من الجمل الاسمية بجماليته الموسيقية، كالآية التالية: ﴿... إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ (آل عمران ٣: ٢٦). تأتي الخاتمة مشتملة على صفة القدرة من صفات الله تعالى في سياق الجملة الاسمية، وبتقديم أجزاء منها على جزء منها؛ ليزيد معناها رسوخا وثباتا في النفس؛ فإنّها تدلّ على الثبوت والدوام دون إخبار عن التجدد والحدوث؛ وهكذا تؤدي غرض الآية بعبارة قصيرة باقية في الذهن ولم يكن المحور إلّا الإشارة إلى صفة المولى، كالقدرة، بحيث يصح أن يكون فيها وفي كثير من الخواتم، للتعظيم والترهيب ولبيان علة الحكم.

إنّ المتتبع لخواتم الآيات في سورة آل عمران يجد أنّ حرف "إنّ" ورد في كثير من الخواتم مع أسماء الله الحُسنى وورد أيضاً في خواتم أخرى لا تحتوي على أسماء الله الحسنى؛ وهذا الحرف له أهمية كبيرة في بداية الجملة الاسمية وأنّه يأتي على أوجه منها: التأكيد والتحقيق ـ وهو الغالب ـ والتعليل. ومِن الخواتم التي ورد فيها "إنّ" يمكن أن نشير إلى الآية التالية: ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّابُ ۞ رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فيهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعادَ﴾ (آل عمران ٣: ٨ ـ ٩). فإنّه يأتي من الحسن والجمال، بحيث لا يمكن أن يحذف من الخاتمة ولما له من قدرة دلالية على ربط الآية بعضها ببعض، ولو حذف لاختلّت بلاغة الخواتم ودلالتها.

### ٣ـ٢. التقديم

لقد امتازت خواتم الآيات بوفرة الأساليب التي تظهر بلاغة القرآن الكريم. فيأتي القرآن بأسلوب التقديم؛ لأنّ التقديم له تأثير أقوى على النفس في الخواتم، كقوله تعالى: ﴿... وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ﴾ (آل عمران ٣: ٧٧). ورد المبتدأ متأخّرا ومنعوتا، والجار والمجرور المتعلقان بمحذوف الخبر المقدم، و"أليم" صفة بيَّنتْ ونعّتتْ درجة عذاب الكفار وخصصته؛ ومثل هذا النعت والمنعوت مؤخّراً، ورد في بعض الخواتم، وفي كلٍ منها تخصيص ووصف للمنعوت.

دور القاعدة النحوية في خواتم القرآن لا ينتهي عند شكل الكلمة؛ وإنّما تتجاوزه إلى التراكيب، تركيب الكلمة داخل الجملة وما تؤدّيه من عمل في إيضاح المعنى. على ذلك، جاء ارتباط النحو بالبلاغة والتفسير، حيث أصبح النحو في خدمتهما؛ لأنّ القرآن الكريم كثيراً ما يوظّف فنون البلاغة، ومِن ذلك: التقديم والتأخير، مثل تقديم شبه الجملة على المسند، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿... واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران ٣: ١٤)، و﴿... وما لَهُمْ مِنْ ناصِرينَ﴾ (آل عمران ٣: ٢٢).

وتأتي أهمية العلاقة الحميمة التي حاول المفسّرون إقامتها بين القاعدة النحوية والنص القرآني في أنّ القاعدة النحوية تساعد حسن الترتيب وجماله وما نشعر فيه من الموسيقى الداخلية، كما نراها في الآيتين السابقتين. يؤدّي تقديم بعض المفردات في المثالين وكثير من الآيات، إلى تقوية المعنى والانسجام الصوتي الحادث بحدوث الإشباع في "عنده"، والغنّة في "لهم من".

واهتمّ البلاغيون بهذا الفن ودرسوه في علم المعاني، خاصّة ما يتعلّق بتقديم المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل، كتقديم المفعول به على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وبحثوا أغراضه في كتب البلاغة «كأنّهم يقدّمون الذي بيانُه أهمّ لهم وهُم ببيانه أعني، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم» (سيبويه، ١٩٩١م، ج ١، ص ٦)، وهو ـ في الغالب ـ يفيد الاختصاص.

هذا التقديم وتجريد صفة أو فعل واختصاص المولى أو غيره بتلك الصفة جاء في كثير من الخواتم، وهو الأهمّ في ختم تلك السياقات المختلفة: ﴿... لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ﴾ (آل عمران ٣: ٨٤)، و﴿وَلِلَّهِ ما فِي السَّمواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمورُ﴾ (آل عمران ٣: ١٠٩). والتقديم في مثل الآيات السابقة، يفيد الاختصاص وتبرز أهمية التقديم فيها؛ فإنّ الله تعالى وحده هو الذي ترجع الأمور إليه دون سواه، وهو الذي نحن مسلمون له وحده؛ وهذا الإسلام يتفرّد المولى به؛ لأنّ الأذهان قد تتوهّم أنّ ثَمّ مَن يشارك المولى في أمره، فيأتي التقديم والتأخير، ليزيل هذا الوهم ويُثبت اختصاص معنى الإسلام لله تعالى بشموله وكماله، فليس المقصود إثبات المسند إلى المسند إليه فقط. وهناك فرق بين التركيبين: "وإلى الله تُرجَعُ الأمورُ"، و"تُرجَعُ الأمورُ إلى الله"، الأول فيه إثبات معنى الرجوع لله سبحانه وتعالى؛ ومن ثَمّ إثبات اختصاصه على الله وأنّ المولى يختصّ بذلك وحده؛ إذن ليس تقديم المتعلق وعدمه سواء في المعنى؛ فقد تبيّنَ أنّ التقديم فيه زيادة في المعنى.

وفي الآية التالية: ﴿... وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران ٣: ١١٧)، يتطلّب السياق تقديم المفعول على الفعل الذي يفيد الاختصاص، وهو يؤكد أنّ التقديم والتأخير يكون استجابة للسياق وما ينتجه من معانٍ ودلالات، فنجد فيها أنّ التغيير في ترتيب الكلمات أثره يكون أكثر من التركيب الأصلي "يظلمون أنفسهم"، يريد أنَّ الظلم يختصّ بأنفسهم وحدهم. فالخاتمة ليس المقصود فيها إثبات معنى الظلم لِلظالمين. وإنّما يكون المراد ـ وفق سياق المعنى ـ إثبات تعلّق الفعل بالمفعول. وإنّ من تمام النظم أن تتحرّك الألفاظ تقديماً وتأخيراً وفق المعنى المقصود في السياق.

هناك مجموعة من الخواتم القرآنية يجب أنْ يتقدّم فيها المتعلق ولا يحسن النظم بتأخره، كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنونَ﴾ (آل عمران ٣: ١٢٢). فالآية السابقة ليس المقصود فيها إثبات التوكّل على المولى، وإنّما يكون المراد ـ وفق سياق المعنى ـ إثبات تعلق فعل "توكّل" بالجار والمجرور. فيجب أنْ يكون التوكّل فيها مختصّاً بالله. فلمّا تقدمت مظاهر فشل طائفةٍ من أهل المدينة، يلزم بيان أنّ صحابة الحقّ ليس لهم إلّا التوكل على الله. إنّ مثل ذلك التقديم، تبرز الدلالة في الخاتمة على كمالها، بحيث يجعل "التوكّل" مثلاً خالصاً على الله لا يشاركه فيها أحد من البشر، وهو معنى يراد من كلّ تقديم وتأخير.

هناك بعض الخواتم التي لم يتقدّم فيها المتعلق وحسن أنْ يتأخر، كقوله تعالى: ﴿... وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنينَ﴾ (آل عمران ٣: ١٥٢). ففيه لم يتطلب السياق الذي يفيد الشمول، ذلك التقديم؛ وليس فضل الله تعالى مختص بالمؤمنين، بل هو شامل وسع السماوات والأرض، وليس المراد بيان أنّها لهم دون غيرهم؛ لأنّ فضله واسع ويشتمل على كل مخلوق. وهذه الصفة على ما هي عليه من شمول يصلح لكل الموجودات، وإنّما كان المراد وفق سياق المعنى وتنكير "فضل"،

إثبات نوع خاص أو عظيم من الفضل للمؤمنين، كما أشار إلى هذا الفضل العظيم الشامل في الآية التالية: ﴿فَانْقَلَبوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سوءٌ وَاتَّبَعوا رِضْوانَ اللهِ وَاللهُ ذو فَضْلٍ عَظيمٍ﴾ (آل عمران ٣: ١٧٤).

تبيّن لنا فيما ذهبنا إليه، أنّ السياق حينما يتطلّب إثبات "الفضل" مثلاً على الإنسان المؤمن بعينه لم يتقدم المتعلق. ومن هنا كان «من الأسس التي بُني عليها ترتيب المتعلقات أنهم يقدّمون منها ما هو أوثق صلةً بغرض الكلام وسياقاته» (أبو موسى، ١٩٨٠م، ص ٢٩٤). فقد تبيّن كذلك أنّ التقديم والتأخير فيه زيادة في المعنى، كما يكون عدم التقديم فيها بغرض لا يتحقّق بسواه ولا يحسن ختم الآية ١٥٢ بـ"على المؤمنين ذو فضل"، فلا يقبل هذا القول. ودلالة التقديم والتأخير في هذه المواضع وغيرها تتمثّل في الاختصاص ومراعاة نظم الكلام.

ومنه يكون تقديم المسند إليه ضميراً على المسند فعلاً، وربّما يتكوّن اختصاص المسند إليه بالخبر الفعلي، إذا كان مسبوقاً بالنفي. وهذا الأسلوب تختصّ بعض الخواتم به، بحيث تكون الخواتم مواضع هذا الأسلوب ولا غيرها، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿... ويَسْتَبْشِرونَ بِالَّذينَ لَمْ يَلْحَقوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ (آل عمران ٣: ١٧٠). تقدّم ضمير "هم" على "يحزنون" مسبوقاً بالنفي ويكون المسند فعلاً ويؤتى بالمسند إليه بين كلمة النفي "لا" والمسند فعلاً "يحزنون". ذلك يفيد التخصيص، أي إنّما المستشهدون في سبيل الله لا يحزنون ويحزن غيرهم؛ ولذا لا يصحّ أنْ يقال: ولا هم يحزنون ولا غيرهم. فهذه الخاتمة تنفي عن المستشهدين حزناً ثبت أنّه موجود لغيرهم. وعلى غرار هذا التحليل، يكون تحليل الآيتين ٨٨ و١٦١.

لبناء الخاتمة أشكال، منها تأخير الجزاء فيها وتقدّم الجواب على جملة الشرط، كقوله تعالى: ﴿... إِنَّ في ذلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ﴾ (آل عمران ٣: ٤٩). تأخّرت أداة الشرط "إِنْ" مع شرطها، وتقدم عليهما الجواب، وعلّق الجزاء، وهو "إنّ في ذلِكَ لآيَةً لَكُمْ"، بوجود الشرط وتحقق معناه، وهو إيمان المخاطبين؛ ويكون الشرط على سبيل التثبيت واطمئنان النفس؛ والرابط المفترض يكون الفاء، غير أنّه حذف مع جملة الجزاء لتقدمها، وتقدّم دليل الجزاء، وهو الجملة الاسمية "إنّ في ذلكَ لآيَةً لكُمْ".

والغرض من التعليق بالشرط، هو تهييج غيرة المخاطبين على الإيمان. ويزيد في تهييجهم تأخير جملة الشرط؛ ولا يخفى ما في تأخير جملة الشرط من قرع مستمرّ في الأسماع وجرسٍ ذي إيحاء قوي وفعّال، حيث هي تحريك للفكر وتنشيطه، إذ جاء فيها إخفاءان، وتردَّد النون أربع مرّات؛ وبعبارة أخرى، أن إعادة الترنمات الصوتية في جملة الشرط تفيد دلالة الثبوت والاستقامة في أمر الإيمان؛ ويكون الغرض البلاغي حثّ غليظ لبني إسرائيل على الإيمان لعيسى (عليه السلام) بعد أن بيّن لهم المعجزات؛ لأنّ الأسلوب الشرطي غرضه الإغراء أو الوعد أو تعليم الناس أنّه يجب اتخاذُ الأسباب والتوسل للشيء. مهما يكن من شيء، فتحليل البنية الشرطية المطبق على هذه الآية، ينطبق على آيات أخر في هذه السورة، هي الآيات: ٩٣، و١١٨، و١٣٩، و١٦٤، و١٦٨، و١٧٥، و١٨٣.

### ٣ـ٣. تأكيد الخاتمة

خواتم الآيات من المواطن التي يحسن فيها التأكيد وتشمل قدراً من مفاهيم الأوامر والنواهي شمولاً صريحاً أو إيحائياً. وتبدو فيها فضيلته، أي تشتمل الخواتم على طلب يحسن التأكيد. ومثل هذا النوع من التأكيد يؤدي إلى شدّ انتباه السامع وإيقاظه أو تقوية معنى الفكرة في ذهن السامع لعظم شأنها، كالآية التالية: ﴿قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ في فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصارِ﴾ (آل عمران ٣: ١٣). إنّ الله تعالى أكّده بـ"إنّ" و"اللام" والتقديم وبناء العبارة على الحالة الاسمية؛ فأكّدها بأكثر تأكيد.

إنّ نظرة سريعة لسياق الآية تكشف عن أنّ الله قد أكّد الخاتمة؛ لأنّها تقرّر حقيقة مهمّة؛ وما ذلك إلا أنّ الكافرين والمترددين يمكن أن ينكروا قوله تعالى: "يرونهم رأيَ العين"، وتظهرَ عليهم أمارات الإنكار في أنّ الكافرين يرون المسلمين مثليهم عدداً في معركة البدر. فأكّد الخاتمة بأشدّ تأكيد تنبيهاً لهم وإيحاء بأنّ الله يمدّ فئة مؤمنة تقاتل في سبيله. وما ذلك التأكيد إلا لإنكار المتردّد أو المنكر، فيحسن معه أنْ يساق الكلام إليه بالتأكيد. ونرى أنّ الكلام يجري على مقتضى الآية الظاهر وعلى أمر واقع؛ وذلك موطن دقيق وموقع حسن في استخدام أسلوب التأكيد. ففي الخاتمة، تكثر رغبة المتلقي بسبب تقوية معنى الفكرة؛ إذ تكون دواعي التأكيد هي رغبة السامع في تقوية مضمون الكلام وتقريره في نفسه، وإن كان غير منكر له.

وبالتقديم، وضعت الألفاظ في مكان معين من الخاتمة، بحيث لو تغيّر وضعها تقديماً أو تأخيراً أو حذفاً، لاختلّ ذاك الإيقاع والتناسق اللفظي وذاك الوزن الخاص؛ فربّما يكون الانسجام في النغم، وجرس القول وموسيقاه. انظر إلى هذا الاختلال بسبب التغيير الموضعي: "إِنَّ العِبْرةَ لِأُولِي الْأَبصارِ في ذلِكَ".

**٣ـ٤. إضافة الصفة إلى الموصوف**

هي إحدى وسائل فنية الخواتم المدعمة بالصوت، كما أن استعمال الجمل المتراصّة والمتوازية يوفّر قدراً كبيراً من التكثيف عن طريق هذه الجمل الموجزة المختصرة ذات الدور الدلالي الفعال. تكون الإضافة على قسمين: محضة، وغير محضة، وهي تسمّى لفظية؛ إذ أضيف الوصف إلى الاسم أو المصدر أو غيره، كقوله تعالى: ﴿... وَاللهُ شَديدُ الْعِقاب﴾ (آل عمران ٣: ١١)، و﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَريعُ الْحِسابِ﴾ (آل عمران ٣: ١٩)، و﴿... إِنَّكَ سَميعُ الدُّعاءِ﴾ (آل عمران ٣: ٣٨).

في كلّ من الخواتم السابقة، أضيفت صفة "شديد"، و"سريع"، و"سميع" إلى "العقاب"، و"الحساب"، و"الدعاء"؛ وكلها اسم أو مصدر، فتقدّمت الصفة في كلٍّ منها على الموصوف وصارت مضافاً وصار الموصوف مضافاً إليه مجروراً؛ «وإذا كان المضاف وصفاً يشبه "يفعل"، أي الفعل المضارع، وهو كلّ اسم فاعل أو مفعول بمعنى الحال أو الاستقبال أو صفة مشبهة ولا تكون إلّا بمعنى الحال» (ابن عقيل، ١٣٨١هـ.ش، ج ٢، ص ٤٢)، للدلالة على معنى متّصل بالزمن الحاضر اتصال دوام وملازمة «وتفيد في أكثر حالاتها الدوام والاستمرار، وهذان يقتضيان أنْ تشتمل دلالتها على الأزمنة الثلاثة: الماضي، والحال، والمستقبل؛ إذ يتحقّق معنى الدوام والاستمرار بغير عناصره الأساسة الثلاثة، فلا يمكن أن تكون للماضي وحده، ولا للمستقبل وحده، وكذلك لا يمكن أن تخلو من الدلالة على زمن الحال» (حسن، د.ت، ج ٣، ص ٢٩).

لا تفيد هذه الإضافة تخصيصاً أو تعريفاً، وإنما تفيد التخفيف، وتتسم بالإيجاز والاختصار مع الوفاء بالدلالة على المراد وترسيخه في ذهن المستمع. يساعد تردد هذه الصياغة في كثير من الخواتم على استمرارية النص ودوامه وتدفّقه، دون تحديد بزمن معين؛ لأنّ كلاً من "شديد"، و"سريع"، و"سميع"، و"حسن" صفة مشبهة «كانت في أصلها اسم فاعل يفيد الحدوث ثم أريد منه الثبوت والدوام ...، وإذا كانت الصفة المشبهة دالة على ثبوت معناها ودوامه، فإنّ زمنها بمقتضى هذه الدلالة لا بدّ أنْ يشمل الماضي والحال والمستقبل» (المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٧)، ويحتوي الاستمرار أو الدوام على الأزمنة الثلاثة دائماً، كما يحدث موسيقياً منتظماً في الخواتم، «لوقوع أثرها المباشر على الألفاظ» (المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣)، حيث تتوازى خواتم الآيات في البناء النحوي أو الشكل الخارجي، وتتقارب من حيث دلالتها أو مضمونها الذي تشير إليها.

### ٣ـ٥. التعريف والتنكير

يكون الأصل في الخواتم أن يأتي سياقها في أسلوب التعريف، ويؤتى المسند إليه فيها معرّفاً بسبب تقدّم ذكرِه إما صريحاً أو تلويحاً، وهو يأتي معرفاً؛ ليشير إلى مسمّاه الذي سبق وذكره، كقوله تعالى: ﴿كَيْف يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ ... وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمينَ﴾ (آل عمران ٣ :٩)، و﴿فَمَنِ افْتَرى عَلَى الله الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمونَ﴾ (آل عمران ٣: ٩٤). جاءت اللفظتان المعرفتان "القوم الظالمين"، و"الظالمون" في الخاتمتين، لإفادة قصره على المسند إليه أو ادعاء المبالغة في كمال معنى الظلم في المسند إليه أو الدلالة على إمعانهم في الكفر.

وهذه القضية ليست بشائعة، ويكون من العناصر المؤسسة للخواتم اعتمادها على تنكير المبتدأ، وقد يكون وراء ذلك سبب تعبيري، وربّما يكون تأكيداً أو تعظيماً أو إبرازاً لأهميّة ذلك الأمر. فسيطرة تنكير المبتدأ المؤخّر على خواتم بعض الآيات أمر واضح، كقوله تعالى: ﴿... فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ﴾ (آل عمران ٣: ١٨٨)، حيث جاء المبتدأ نكرة للإشارة إلى التنبيه على أنّ العذاب شديد وهائل. يؤدّي تكرار "العذاب" في خاتمة الآية ١٨٨ إلى تحقيق التماسك اللفظي النصي؛ وهذا الامتداد وصل في نهاية الآية إلى قمّتها بسبب تنكير لفظة "عذاب" فيها؛ إذ يدلّ التنكير على الشدّة والحِدّة، فجعل القرآن الكريم تنكيرها وسيلة للمبالغة في الوعيد والتهويل؛ كذلك يسهم تأخير هذا العنصر وتوصيفه في تحديد القضية فيها بالتأكيد على محتوى معين.

ومما يثير انتباهنا وتأمّلنا أنّ لفظة "العذاب" الأولى جاءت معرفة، ولكنّ الثاني جاء دون علامة التعريف. فهذا التغيير في الأسلوب يوحي بدلالة هامشية من خلال تنكير اللفظة المترددة، فهي تؤدّي معنى العذاب الشديد بكمالها، لنجد تجربة العذاب التي يقاسي المجرمون، والتي تنذر بالوعيد والتهديد. وكذلك، يؤتى بالخواتم في سياق التنكير، حين يكون موضوعها تعذيب أهل النار ويدخل المبتدأ المؤخر نكرةً لغرض تعظيم العذاب وتهويل الكفار، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ ۞ ... وَلَهُمْ عَذابٌ أَليم ۞ ... ولَهُمْ عَذابٌ مُهينٌ﴾ (آل عمران ٣: ١٧٦ ـ ١٧٨).

يؤتى بالمسند إليه في الخواتم نكرة لأغراض كثيرة، منها التعظيم، بمعنى أنّه أعظم من أن يعيّن ويعرف، كقوله تعالى: ﴿فَانْقَلَبوا بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ الله وَالله ذو فَضْلٍ عَظيمٍ﴾ (آل عمران ٣: ١٧٩)، و﴿... وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظيمٌ﴾ (آل عمران ٣: ١٣). جاء المبتدأ، أي "فضل"، و"أجر"، موصوفاً بصفة "عظيم"، لكن تنكير المبتدأ يزيد عظمة الفضل والأجر؛ وليس تنكير المسند إليه لعدم العلم من جهات التعريف حقيقة أو ادعاءً، بل يكون لأغراض بلاغية مختلفة. فجاءت كلمة "فضل عظيم"، و"أجر عظيم"، نكرة لتدلّ على أيّ فضل عظيم وأيّ أجر عظيم وللإشارة إلى أنّه صعب أو غير ممكن تعريفهما والإحاطة بهما،؛ وربّما يكون في تنكير خواتم الآيات السابقة، تنبيهٌ على كمال تلك الصفة في ذلك الموصوف؛ وهذا أمر كثر وشاع في الخواتم. ونجد أنّ في هذه الاعتبارات فوائد كثيرة ويكون فيها بلاغة كبيرة أيضاً.

### ٤. الانزياح في الخواتم

إذا كان النحو يحدِّد لنا الضوابط في صياغة الكلام، فإنّ التحليل الفني يحتم علينا التعامل مع الانزياح النحوي الذي استخدم في خواتم الآيات بكثرة وكثافة. والبحث عن أسبابه وأبعاده يوضح جماليتها أكثر فأكثر. ويمكن الإشارة هنا إلى موضوع الانحراف عن المعيار، أي الانزياح النحوي الذي يحمل لمحات فنية وأدبية تدلّ على جمالية النص القرآني.

### ٤ـ١. اسمية جواب الشرط في الخاتمة

يذكر هنا المستوى الانزياحي في الجملة الاسمية التي استخدمت جواباً وجزاء للشرط، أي الانزياح من الفعل إلى الجملة الاسمية؛ وهو أن يأتي جواب الشرط أو جزاؤه في الخاتمة بصورة الجملة الاسمية المصدرة بـ"إنّ". في هذه الحالة، يصلح الابتداء بجواب الشرط مستقلاً منقطعاً عنه. وهذا الجواب الظاهر ليس الجواب المنطقي المترتب على الشرط مباشرة، إنما هو مكنّ عنه وسادٌّ مسدّه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنالوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقوا مِمّا تُحِبّونَ وَما تُنْفِقوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ الله بِهِ عليمٌ﴾ (آل عمران ٣: ٩٢).

ليس الجواب الظاهر جواباً منطقياً مترتّباً على الشرط مباشرة، ولكنه يشير إليه ويقتضيه، وإنّما هو مكنّ عنه وسادّ مسدّه. وتقدير الجواب المنطقي: "يَعلَمْهُ الله". ولا يخفى ما في اختيار الجملة الاسمية من معنى الثبوت، وما في الإظهار "فإنّ الله"، دون الإضمار من دلالة بلاغية. فإنّه من تعظيم لله، كما لا يخفى ما في الكناية عن الجزاء من تحريك للفكر وتنشيطه ومن سحر بلاغي على أساس الإيجاز.

يكون الغرض البلاغي هو حثّ المؤمنين على الإنفاق: "فإنْ أنفقوا فالله عليمٌ بهم وسيجزيهم على ذلك جزاءاً خيراً". فعبّر عن الجزاء بالعلم الذي ينشأ عنه جزاؤهم. والخاتمة الاسمية تدلّ على استمرار مضمون خبرها في جميع زمن الماضي والحاضر والاستقبال. وقد جاءت "الفاء" لعدم صلاحية الجزاء، ليكون داخل الشرط، وقطعت قدرة أداة الشرط على التأثير زمنياً في الجزاء وحالت دون امتداد التأثير الزمني للأداة إلى زمن الجواب. وأصبح من الضروري استخلاص الزمن من خواصّ جملة الجزاء نفسها في الخاتمة. وجاء الجزاء اسمية، فأفادت ثبوت معنى المسند، أي العلم بالإنفاق إلى المسند إليه، أي الله، فختمت الآية ختاماً حسناً.

أمّا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفوا ما في صُدورِكُمْ أَوْ تُبْدوهُ يَعْلَمْهُ الله وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ...﴾ (آل عمران ٣: ٢٩)، فلم يقع في جواب الشرط انزياح نحوي، وجاءت جملة الجواب فعلية، وفقدت الميزات التي تملكها الجملة الاسمية. من ممكن أنّ السبب يكمن في عدم الحاجة إلى هذه الدلالة الهامشية، بما أنّه تعالى ستّار يعفو بالسرعة عن النوايا السلبية، وليس هناك ثبوت ودوام.

ونظنّ أيضاً أنّ السبب يكمن في عدم وقوعه داخل الخاتمة وحدودها الصوتية، ونرى أنّ ما ورد في هذه الآية والآية ٢٨ في سياق تحذير المؤمنين، ولذلك جاء بقوله: "يعلمه الله"، جملة فعلية فعلها مضارع، فهي «تدعو إلى التغير والتطور» (فاضلی، ١٣٧٦هـ.ش، ص ٧١). نعتقد أنّ هذا الفعل أبلغ في الجواب من الجملة الاسمية؛ لأنّ الجملة الفعلية جاءت بالفعل الذي لا يقتضي المطلق والثبوت والدوام. وذلك الفعل كإنعام وإحسان منه سبحانه يستجرّ خوف المؤمنين، فناسبه التعقيب بِذكر "وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرضِ وَالله عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ"، تخويفاً وتذكيراً لهم.

وعلى غرار هذا، يصير تحليل الآيات التالية: ﴿... وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ الله فَإِنَّ الله سَريعُ الْحِسابِ﴾ (آل عمران ٣: ١٩)، و﴿... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمين﴾ (آل عمران ٣: ٩٧). والجزاء في كلتا الخاتمتين هو الجملة الاسمية، وهي قائمة مقام الجواب وعلة له وليست الجواب المباشر للشرط ... «وإظهار لفظ الجلالة لزيادة المهابة وإدخال الروعة» (أبو السعود، ١٩٩٤م، ج ٢، ص ١٦). وتدخل النواسخ: "إنّ، وأنّ، ولكنّ، وليت، ولعلّ" على جملة المبتدأ والخبر وتزيدها تأكيداً.

### ٤ـ٢. الوصل والفصل

إذا توالت الجملتان، عطفت الجملة الثانية في حالة تشريك الإعراب والحكم أو عند الإيهام. وهذا العطف يكون بسبب حرف "الواو"، ويسمّى في علم البلاغة "الوصل". وقال بعض البلغاء في تعريف البلاغة: «هي معرفة الفصل والوصل» (الهاشمي، ١٣٧٨هـ.ش، ص ١٥٩). يجب في الوصل أن تتّحد الجملتان خبرية أو إنشائية، إلّا إذا حدث الإيهام وينبغي أن تتفقا اسمية أو فعلية. وأمّا في قوله تعالى: ﴿... قُلْ لَوْ كُنْتُمْ في بُيوتِكُمْ لَبَرَزَ الذينَ كُتِبَ عليهِمُ الْقَتْلُ إلى مَضاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما في صُدورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما في قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عليمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران ٣: ١٥٤). فتكون الخاتمة في هذه الآية اسمية، ولكنّ الجملة السابقة فعلية "لَيَبتَلِيَ"، و"لِيُمَحِّصَ". فالاختلاف بينهما يكون من حيث نوع الجملة، ولكن عطفت الجملة الخاتمة على السابقة لغرضٍ، أي إفادة الدوام والاستمرار في الخاتمة.

فقد لوحظ في الأولى تعاطي ابتلاء ما في الصدور وتمحيصه، وفي الخاتمة الاستمرار على علم المولى والثبات عليه؛ ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما، كما نجد هذه الدلالة في الآية التالية: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الّذينَ آمَنوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظّالِمين﴾ (آل عمران ٣: ١٤٠). فكأنّ الخاتمة موضع "وليَعلَمَ اللهُ الظالمينَ المبغوضينَ عندَه"، ولكنّ الخاتمة عدلت عنها لإفادة التجدد والاستمرار.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعونَ إلى الخَيْرِ وَيَأْمُرونَ بِالْمَعْروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحونَ﴾ (آل عمران ٣: ١٠٤)، فجاءت الخاتمة اسمية معطوفة على الجملة السابقة فعلية لإفادة التجدد والاستمرار والثبات. فكأنّ الخاتمة تكون موضع "يفلحون"، فيدل وضع الاسمية موضع الفعلية في الخاتمة على إمعانهم في الفوز والفلاح واستمرارهم فيه.

ربما تتناسب الجملتان في الدلالة تناسباً تاماً، كالبدل، أو يكون بينهما اختلاف في الصورة إنشائية وخبرية، أو يكون بينهما تباعد في المعنى. في هذه المواضع، يجب الفصل بين الجملتين، كقوله تعالى: ﴿ها أَنْتُم أُولاءِ تُحِبّونَهُمْ وَلا يُحِبّونَكُمْ وَتُؤْمِنونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقوكُمْ قالوا آمَنّا وَإِذا خَلَوْا عَضّوا عليكُمُ الأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ موتوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ﴾ (آل عمران ٣: ١١٩). جاءت الخاتمة دون الوصل وبغير أداة الربط، كأنّها لا ترتبط بما قبله ارتباطاً وثيقاً، بل هو يناسب الشرطين في وسط الآية، وتكون الخاتمة جواباً غير مباشر للشرط الأول وتكون جواباً غير مباشر للشرط الثاني. فانظرها بهندسة ورسم آخر حتى تجد جمالية الفصل في خاتمة الآية وكمال اتصالها بالجوابين:

ـ "وَإِذا لَقوكُمْ قالوا آمَنّا = فإِنَّ اللهَ عليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ"؛

ـ "وَإِذا خَلَوْا عَضّوا عليكُمُ الأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ موتوا بِغَيْظِكُمْ = فإِنَّ اللهَ عليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ".

جاء في أسباب الفصل «أنْ تسبق جملة بجملتين يصحّ عطفها على الأولى لوجود المناسبة، ولكن عطفها على الثانية فساد في المعنى، فيترك العطف بالمرّة دفعاً لتوهم أنّها معطوفة على الثانية ويسمّى ذلك شبه كمال الانقطاع» (الدياجي، ١٣٧٦هـ.ش، ص ١١٨)؛ ولكنّا نظنّ أنّ للفصل في الخاتمة سبباً آخر، وهو أنّ الخاتمة ترجع مرةً إلى الجواب الأوّل، وترجع مرة إلى الجواب الثاني.

فالخاتمة تغطّي الجوابين، وهي تكملة لهما؛ وهكذا تثرى الآية دلالة وديمومة. ولو قمنا بعطف الخاتمة بواسطة الواو أو غيرها على ما قبلها لاختلّ الانسجام المعنوي؛ لأنّه يرتبط بالشرط الأول أيضاً ولا يقتصر ربطها على الشرط الثاني وتكون الخاتمة جامعة الدلالة، تامّة الارتباط بأجزاءها وتلعب دور المفتاح في الوصول إلى المعنى المراد وليست مظهراً واحداً من مظاهر خطابية في المستوى الدلالي، بل هو مظهر خطابي متعدّد الجوانب والأبعاد، كما نرى أسلوب الفصل في الآية التالية: ﴿... فَإِذا

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران ٣: ١٥٩). جاءت الخاتمة دون أداة الربط لكون الرابطة قوية بينها وبين جواب الشرط، كأنّها تكون جواباً لسؤال وتكون بين الجملتين رابطة معنوية قوية، كما يأتي الجواب بعد السؤال لأجل الارتباط المعنوي بينهما دون الوصل. فهذه الرابطة القوية بين الجملتين مانعة من العطف، فتأتي الخاتمة شديدة الارتباط بالجملة التي قبلها، متضمنةً للمعاني المتناسِبة التي جاءت في السياق أو متضمنة لبعضها مع كونها مستقلاً بنفسه لو انقطعت من الآية.

وعلى غرار هذا، يكون تحليل قوله تعالى: ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّابُ﴾ (آل عمران ٣: ٨). فالخاتمة شديدة الارتباط بالجملة السابقة؛ لأنّها كالجواب عن سؤال حدث من الأولى. فهذه الرابطة القوية بين الجملتين مانعة من العطف، ولهذا وجب الفصل، ويسمى ذلك "شبه كمال الاتصال".

وأمّا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمّا أَصابَتْكُمْ مُصيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ (آل عمران ٣: ١٦٥). فكأنّ الخاتمة تكون بياناً وإيضاحاً لعبارة "قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها" في وسط الآية، أي إنّ هذه الإصابة للعدوّ وهزيمته تكون بإذن الله تعالى وقدرته وأسبابه، وتكون بين الجملتين رابطة قوية وتناسب شديد؛ ولكنّنا لو قمنا بعطف الخاتمة على ما قبله مباشرة لالتبست علينا الدلالة لأجل وقوع في مقول القول لئلّا يتوهم التناقض، أي "مِن عِندِ أنفسِكم ومن عند الله القدير"، أي هزيمتكم تكون من جانب أنفسكم لا من عند الله تعالى، كما يقول سبحانه تعالى: ﴿مَا أصابَكَ مِنْ حَسَنةٍ فَمِنَ اللهِ وَما أصابَكَ مِنْ سَيِّئةٍ فمِنْ نَفسِكَ ...﴾ (النساء ٤: ٧٩). وهو يسمى "التوسط بين الكمالين"، فتبرز أهمية الخاتمة بسبب الفصل في دور تحسين الكلام وإيصال الخطاب حتى لا يبقى في النفس تطلع إلى ما يذكر بعده.

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ في فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبصارِ﴾ (آل عمران ٣: ١٣)، وجب الفصل بين البداية والخاتمة وترك العطف، حيث «يكون بين الجملتين اتحاد تام وامتزاج معنوي حتّى كأنّهما أُفرِغتا في قالب واحد بحيث تنزل الثانية من الأولى منزلة نفسها» (الديباجي، ١٣٧٦هـ.ش، ص ١١٦)، ويسمّى ذلك "كمال الاتصال".

وتقاربت البداية والخاتمة في معناهما تقارباً تاماً حتى تكون الخاتمة بمنزلة البدل من بداية الآية، ويكون نوع هذا البدل من نوع بدل البعض، وتكون بين الجملتين مناسبة شديدة في المعنى، بحيث يجب الفصل بينهما في هذا الموضع، كما نجد كمال الاتصال، في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا بِطانَةً مِنْ دونِكُمْ لا يَأْلونَكُمْ خَبالاً وَدّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفي صُدورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنّا لَكُمُ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران ٣: ١١٨).

تكون بين الخاتمة والجملات السابقة مناسبة كاملة في المعنى، وكما نجد الفصل بسبب كمال الاتصال في داخل الخواتم، وهو كثير في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ كَفَروا لَنْ تُغْنيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فيها خالِدونَ﴾ (آل عمران ٣: ١١٦). فجملة "هم فيها خالدون" كالبدل المطابق لـ"أولئك أصحاب النار" حتى كأنّهما أفرغتا في قالب واحد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ في إِبْراهيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوراةُ وَالإِنْجيلُ إِلاّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلونَ﴾ (آل عمران ٣: ٦٥). فجملة "أفلا تعقلون" بمنزلة البدل من جملة "فلِمَ تُحاجُّون ..." بدل الاشتمال؛ لأنّ بينهما مناسبة بغير الكلية والجزئية. فلبلاغة القرآن درجات، وللإعجاز فيها وجوه كثيرة. واهتمام بعض الدراسات بالمعاني التركيبية والمباني يبيّن «أنّ القرآن قد أضاف إمكانات كبيرة للنحو بالمفهوم الجمالى التركيبي واستحدث طرقاً فنية للربط بين المفردات وبين الجمل والعبارات» (عبد المطلب، ١٩٩٤م، ص ٤٨).

### ٤ـ٣. الالتفات

يطرح هذا الأسلوب في البحث عن بعض الانزياحات الأسلوبية؛ ولهذا الأسلوب أهمية في المجال الإبداعي والجمالي للخواتم، حيث يحرض الذهن بانتقاله من معنى إلى معنى آخر في سياق من أسلوب جميل إلى أسلوب جميل آخر. و«الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد» (الزمخشري، ١٤٠٧هـ، ج ١، ص ٨).

تكون صور الالتفات كثيرة ومتنوعة في الخواتم، فهي قد تكون انتقال من اسم الغيبة إلى المخاطب؛ ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الذينَ يَبْخَلونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقونَ ما بَخِلوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ وَلِلَّهِ ميراثُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِما تَعْمَلونَ خَبيرٌ﴾ (آل عمران ٣: ١٨٠). وهنا الالتفات إليهم بالخطاب دلالة على شنيع فعلهم وأنّهم يستحقّون العذاب بسبب بخلهم؛ يقول الزمخشري: «قرئ بالتاء والياء، فالتاء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد» (١٤٠٧هـ، ج ١، ص ٢٢٣). إنّ بناء الفعل "تعملون" على الخطاب جاء على أقصى درجات البلاغة ويكشف عن جمالية الالتفات في النص القرآني؛ لأنّ قضية الإنفاق من الأمور التي استوجبت الالتفات إلى المخاطب حثّاً للمؤمنين ووعيداً للبخلاء.

إنّ الالتفات في الآية السابقة أعطى ثراءً للمعنى. فالخاتمة بدونه توقف المعنى على معنى الوعيد. وفي الالتفات ثراء، حيث يحمل معنى الحثّ والوعيد، حثّ السامعين والمؤمنين على الإنفاق ووعيد البخلاء الذين يستنكفون عن الإنفاق. تبدو الفائدة أكثر وضوحاً في هذا النوع من الالتفات؛ ذلك بأنّه يشتمل على إقبال المخاطبين، «ففي مقام الذم والوعيد ينطوي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب على مواجهة المتلقين بالتوبيخ والتقريع والإنكار والدلالة على شدة الغضب» (محمد، ٢٠٠٠م، ص ٣٤٢).

وفي قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَني إِسْرائيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ﴾ (آل عمران ٣: ٩٣)، بنيت الخاتمة على أساس الالتفات من الإظهار إلى المخاطب على مواجهة بني إسرائيل بالتوبيخ والتقريع؛ لأنّهم لم يكونوا صادقين في كلامهم، وهناك بعد نفسي لجمالية هذا التغيير اللفظي، وهو أنّ القارئ يقرأ الخاتمة ويجدها في تغيّر واضح، وهو يتوقّع توقعاً مذكوراً قبله، كما مرّ به تماماً؛ ولذا يحسّ بلحظة سرور، حين يلحظ فجأة أنّ أسلوب الخاتمة قد تغير مع ثبات القضية، وكذلك تثبت الخاتمة في ذهنية القارئ.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ الْعليمُ﴾ (آل عمران ٣: ٣٥)، لقد استعمل الأسلوب القرآني خلال مقامه في هذه الآية ضمائر، وهي ضمير المتكلم المفرد "تُ"، و"ي" في سياق الآية، ثمّ ضمير المخاطب المفرد "ك"، و"أنت" في الخاتمة. إذن، فوجئ المتلقي بتغيير الضمير من المتكلم إلى المخاطب.

ويبرز هذا الانتقال الفجائي والسريع في الضمائر التموجات في الخاتمة، فيلحظ المتلقي دوراناً وانتقالاً بين الشخوص والضمائر ويصل من هذه المفاجأة والتذبذبات إلى ما حدث لامرأة عمران أمّ مريم (عليها السلام) من حالة نفسية وشعورية دعائية ممزوجة بالخوف والرجاء؛ كأنّها تقرع باب رحمة المولى سبحانه وتعالى بسبب شدة طلبها؛ «ووجهه ـ الرجوع من التكلم إلى الخطاب ـ حثّ السامع وبعثه على الاستماع، حيث أقبل المتكلم عليه وأنّه أعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة» (الزركشي، د.ت، ج ٣، ص ٣١٥). فهذا معنى تشير إليه الدلالات السياقية في هذه الآية والآية ٣٦. هذا كلّه يشير إلى جمالية الانسجام وفنيته، حتى يجسد المتلقي بهذه التقنية التذبذبات النفسية والتموّجات الشعورية لدى أمّ مريم (عليها السلام).

إنّ صورة الانتقال من الغيبة إلى التكلم تشير إلى معنى التعظيم؛ لأنّ الحديث حينئذ يكون بـ"نون" المتكلم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذينَ قالوا إِنَّ اللهَ فَقيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَريقِ﴾ (آل عمران ٣: ١٨١). إنّ تعظيم الفاعل حين إسناد الفعل إليه، يشير إلى عظمة الفعل وخطره وأهميته. تلك الأهمية التي يراد تثبيتها في أذهان المتلقين، وقد يكون من علائم العظمة اختصاص الفاعل بالفعل، على نحو لا يستطيعه غيره؛ ومن ثَمّ دعوة إلى إعمال الذهن في ذلك الفعل نفسه، والتوقف عنده طويلاً لمعرفة عمق المعنى. هذا النوع من الالتفات اختصّ بأفعال لها أهميتها والتأمّل فيها يوجب تقرير المعنى المراد.

إنّ بناء الفعل "سنكتب" و"نقول ذوقوا عذاب الحريق" على التكلم يكشف عن جمالية الالتفات في الخاتمة؛ لأنّ هذا الفعل يدلّ على أنّ كتابة الأعمال والأقوال، وتعذيب المجرمين من اختصاص المولى فقط؛ ولخطورته وحساسيته، ينسب إليه مباشرة على الحقيقة، فليس الملائكة هم الذين يكتبون ويعذّبون؛ وفي الواقع أن الله تعالى يسجّل ويعذّب ولا يخفى عليه شيء من الأقوال والأعمال؛ وفيها وعيد؛ وربما يتمحور موضوع الالتفات في الترابط بين الخواتم وآياتها حول انتماء الأمور إلى الله ومشيئته؛ لتستقرّ دلالة التوحيد في القلوب استقراراً دائماً.

### ٤ـ٤. الإظهار في الخاتمة

يوضح النحاة في البحث عن المضمر والمظهر أنْ يأتي الضمير في حالة تردّد الاسم، ولا يجوز الإتيان باسم الظاهر؛ ولكن نرى في كثير من الخواتم العدول من المضمر إلى الاسم الظاهر. وحقيقة الأمر أنّ الاسم الظاهر يأتي موضع الضمير لفائدة بلاغية. ويكون الإظهار موقع الإضمار أشدّ توكيداً وتثبيتاً كالآية التالية: ﴿وَأَمّا الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجورَهُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظّالِمينَ﴾ (آل عمران ٣: ٥٧).

إنّ الأثر الذي يترك الاسم الظاهر "الله" أقوى وأكثر تأثيراً من الضمير؛ لأنّ تصوّر الذهن عن الضمير والاسم الظاهر مختلف من حيث إيقاع ظلاله على النفس؛ ثم إنّ الخاتمة تبنى بصورة جملة مستقلة ذات إيحاء قوي وفعال يصحّ أنْ تقوم مقام المثل أو الحكمة أو أن تكون تذييلاً مناسباً لمعنى السياق؛ في حين أنّ الضمير لا يستطيع أنْ يفعل ذلك. هذا الخروج إنّما يكون لفائدة بلاغية غير فوائد إتمام المعنى وإيجاز الكلام؛ «والعرب إذا فخمت شيئاً، كرّرته بالاسم الذي تقدّم له» (الآلوسي، د.ت، ج ١، ص ٣٣٤). ومن فوائد الخروج عن الأصل هو التعظيم، والتنبيه، والاستلذاذ، وغير ذلك.

وقد يذكر الاسم الجليل في موضع يصح أن يضمر فيه، ويكون ذلك لما له من هيبة وخشية ولما يلقي من خوف في قلوب السامعين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ ... وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَريعُ الْحِسابِ﴾ (آل عمران ٣: ١٩). جاء الاسم الظاهر للدلالة على تلقيات خاصة عند متلقي النص، كما أشار بعض المفسرين إلى معانيه الهامشية: «وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف وبيان كمال قبح ما ارتكبوه» (أبو السعود، ١٩٩٤م، ج ١، ص ٢٠٧).

يكون وقوع الهيبة والخوف في نفس المخاطب بسبب وقوع اللفظ في سياق يقتضي ذلك المعنى. نعتقد أنّ الإظهار موقع الإضمار يكون أشدّ توكيداً في منع أهل الكتاب عن الكفر بالإسلام، ولكن في قوله تعالى: ﴿... وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبادِ﴾ (آل عمران ٣: ٣٠)، إظهار لفظ الجلالة باعث للارتياح والاطمئنان، وذكره من دواعي الأمن والسعادة، وبذكره ترتاح النفوس وتهدأ. فيكون وقوع الاطمئنان في نفوس العباد مبعثه وقوع اللفظ في سياق الخاتمة. ويمكن أنْ يكون هذا النوع من الإظهار بضبط سلوك العباد ووقوع الخشوع والمراقبة في نفوسهم.

مضافا إلى ذلك، استقلّت الجملة الخاتمة، فهي تكون كاملة، بحيث لو استخدمت مقطوعة عن السياق الذي هي فيه، يبقى المعنى فيها على تمامه وكماله ويحسن استخدامها في مواطن خارج السياق. فالخاتمة "والله رؤوفٌ بِالعباد" بسبب إظهار لفظ الجلالة، مقطع مستقلّ المعنى ذو رموز ذهنية مرتبطة بألفاظه؛ ولو أنّنا أضمرنا وقلنا: "وهو رؤوف بالعباد" فهي جملة ليست مستقلة، حيث لا يحسن قطعها من السياق.

أمّا في الآية التالية: ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إِلهَ إِلا هُو والْمَلائِكَةُ وأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاّ هُو الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران ٣: ١٨). فما يلفت انتباهنا، إعادة الضمير بعد "إلّا" بدل لفظ الجلالة، وهو ينبع من قضية التقابل الدلالي، أي تقابل الشهادة والغيب بواسطة ورود لفظة "شَهِدَ" وإعادة الضمير الغائب "هو"؛ والقصد منه دلالة الضمير الغائب على معنى محوري ينطوي، وهو قضية الغيب؛ وتبعاً لذلك يحصل انسجام جمالي من وقفة تأملية بين إعادة الضمير الغائب وما يقابلها في بداية الآية.

وفي خواتم قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَالله وَلِيُّهُما وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنونَ﴾ (آل عمران ٣: ١٢٢)، و﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ الله فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنونَ﴾ (آل عمران ٣: ١٦٠)، و﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ وَأَنَّ الله لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنينَ﴾ (آل عمران ٣: ١٧١)، قد ظهر لفظ "المؤمنين" موقع إضمار الخطاب والغيب، حيث يصح الإضمار.

يكفيك أن تنظر إلى وقع لفظ "المؤمنين" وما يستدعيه من تفخيم وتعظيم؛ وكأنّه من دواعي الاستقامة والمصابرة في معركة القتال؛ فألحّت الخواتم على لفظ "المؤمنين" إلحاحاً وكررته مظهراً في موضع إضماره؛ وصارت مصادر تزايد الإحساس بمشاعر مختلفة من تفخيم الإيمان وتعظيمه بما أنّ لاسم "المؤمنين" بمدلوله وقعاً عظيماً في القلوب؛ والمراد تمكين الإيمان وإشاعة قوته في الضمائر؛ «فقد استعمله، أي الإيمان، بالصيغة الاسمية كثيراً؛ وذلك لأنّ الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب» (السامرائي، ٢٠٠٦م، ص٣٠).

وبذلك تتربّى قدرة الإيمان بالله ورسوله في قلوب الأمة المقاتلين. هذا هو الذي يجري عليه القرآن الكريم خاصّة في الخواتم؛ وهذا الخروج إنّما يحمل فائدة بلاغية. ويظلّ الاسم الظاهر ينفرد بجملة من المزايا عن الضمير ويلقي بظلاله على النفس أقوى وأكثر تأثيرا من الضمير، وله أثرٌ كبير في بناء الخاتمة بصورة جملة مستقلّة ذات إيحاء قوي وفعّال يصحّ أنْ تستخدم مثلاً أو حكمة أو أن تكون تذييلاً مناسباً للسياق؛ في حين أنّ الضمير عاجز عن ذلك، وقد قلّ أن يعطف بالضمير على الظاهر إلّا ما كان لسبب كأن لا يصح البناء إلّا به.

وأخيراً، لبناء الخاتمة نظامٌ خاصّ يعطيها جمالاً، وفيها يُبحَث عن المعنى البؤري ليتسنّى للمتلقي فهم جماليات التركيب، وهي ظاهرة بلاغية تستدعي بحثها في محلّها.

**الخاتمة**

إنّ دراسة سورة آل عمران دلّتنا على وجود تنوع فني مقصود في خواتم الآيات وأوصلتنا إلى النتائج التالية:

ـ إنّ الخواتم تكون مظهراً متعدّد الجوانب والأبعاد، من مظاهر خطابية في المستوى الدلالي. فربّما تأتي الخاتمة مشتملة على الانزياح الأسلوبي، كـ"التنكير موضع التعريف"، للمبالغة في الوعيد والتهويل، كذلك يسهم تأخير هذا العنصر وتوصيفه في تحديد القضية فيها بالتأكيد على محتوى معين أو تنبيهاً على كمال تلك الصفة في ذلك الموصوف.

ـ جاءت خواتم الآيات في أغلبها جملة اسمية ـ عددها ١٤٢ ـ على وجه الثبوت والدوام؛ لأنّ الجملة الاسمية تدلّ على ثبوت المعنى.

ـ تميّزت الخواتم بإضافة الصفة إلى الموصوف؛ وساعدت هذه الصياغة على استمرارية النصّ ودوامه وتدفقه دون تحديد بزمنٍ معين؛ وهذه الإضافة تفيد التخفيف وتتسم بالإيجاز والاختصار مع الوفاء بالدلالة على المراد وترسيخه في ذهن المستمع. في الخواتم، تكثر رغبة المتلقي بسبب تقوية معنى الفكرة؛ إذ تكون دواعي التأكيد هي رغبة السامع في تقوية مضمون الكلام وتقريره في نفسه بـ"إنّ" و"اللام" والتقديم وبناء العبارة على الحالة الاسمية أو ... .

ـ جاءت بعض الخواتم بانزياحاتٍ، كاسمية جواب الشرط المصدرة بـ"إنّ"؛ لتحريك الفكر وتنشيطه بسبب سحر بلاغي على أساس الإيجاز، كما نجد استخلاص الزمن من خواصّ جملة الجزاء نفسها في الخواتم لإفادة ثبوت المعنى؛ وفي هذه الحالة يصلح الابتداء بجواب الشرط مستقلّاً منقطعاً عنه.

ـ امتلأت الخواتم بانزياحات، كأسلوب الوصل والفصل بسبب التناسب التامّ، كالبدل أو الاجتناب عن الإيهام وتوهّم التناقض أو التغطية لما قبل الخواتم وهي تكملة؛ وهكذا تثرى الآيات دلالة وديمومة فاستوفت صورها.

ـ كثرت صور الالتفات متنوّعة في الخواتم، كانتقال من اسم الغيبة إلى المخاطب. وتبدو الفائدة أكثر وضوحاً في هذا النوع من الالتفات؛ ذلك لأنه يشتمل على إقبال المخاطبين حثّاً ووعيداً وتوبيخاً و... .

ـ نرى في كثير من الخواتم، العدول من المضمر إلى الاسم الظاهر؛ وتأتي هذه الخواتم بصورة جملات مستقلة يصحّ أنْ تقوم مقام المثل أو الحكمة أو أن تكون تذييلاً. وحقيقة الأمر أنّ الإظهار موقع الإضمار أشدّ توكيداً وتثبيتاً.

ـ تأتي كثير من الخواتم بتقديم أجزاء منها على جزء منها، ليزيد معناها رسوخاً وثباتاً في النفس ويزيل الوهم ويثبت الاختصاص.

***

## المصادر والمراجع


* ***القرآن الكريم***.

الآلوسي، محمود أبو الفضل. (د.ت). ***روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني***. بيروت: دار إحياء التراث.

ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله. (١٣٨١هـ.ش). ***شرح ابن عقيل على ألفية***. تحقيق علي الحسيني. قم: واريان.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس. (٢٠٠٨م). ***معجم مقاييس اللغة***. تحقيق محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان. بيروت: دار الإحياء التراث العربي.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد. (١٩٦٨م). ***لسان العرب***. بيروت: دار صادر.

أبو السعود، محمد بن محمد. (١٩٩٤م). ***إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم***. ط ٤. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

أبو موسى، محمد. (١٩٨٠م). ***خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني***. ط ٢. القاهرة: دار التضامن.

باستان، خليل؛ وحسن ساقي؛ ومحسن زارعزاده. (١٣٩٦هـ.ش).«جمالية الانسجام الصوتي في خواتم سورة آل عمران». ***مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها***. ع ٣. ص ٢٣ ـ ٤٠.

بنوناس، مفيدة. (٢٠٠٥م). ***نظام الارتباط في سورة آل عمران***. رسالة الماجستير. جامعة محمد خضر. كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية.

الجرجاني، عبد القاهر. (١٤٠٤ه). ***دلائل الإعجاز في علم المعاني***. تحقيق محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي.

حسن، عباس. (د.ت). ***النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة المتجددة***. ط ٣. القاهرة: دار المعارف.

الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. (٢٠٠٣م). ***الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع***. تحقيق إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.

الديباجي، إبراهيم. (١٣٧٦هـ.ش). ***بداية البلاغة***. تهران: سمت.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. (د.ت). ***البرهان في علوم القرآن***. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط ٣. القاهرة: مكتبة دار التراث.

الزمخشري، جار الله محمد بن عمر. (١٤٠٧ه). ***الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل***. بيروت: دار الكتاب العربي.

السامرائي، فاضل صالح. (٢٠٠٦م). ***التعبير القرآني***. ط ٤. عمان: دار عمار.

سعداني، أخضر. (٢٠٠٦م). ***نظام الجملة الشرطية في سورة آل عمران***. رسالة الماجستير. جامعة قاصدى مرباح. كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

سمحان، نور هاني محمد. (٢٠٠٩م). ***جملة الخاتمة في الآيات الكونية والإنسانية: دراسة أسلوبية***. رسالة الماجستير. جامعة النجاح الوطنية في نابلس. كلية الدراسات العلياء.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان. (١٩٩١م). ***الكتاب***. تحقيق عبد السلام هارون. بيروت: دار الجيل.

السيد، محمد يوسف هاشم. (٢٠٠٩م). ***المناسبة بين الفاصلة القرآنية وآياتها في سورتي الأحزاب وسبأ***. رسالة الماجستير. الجامعة الإسلامية فلسطين. كلية أصول الدين.

عباس، تحسين فاضل. (٢٠١٢م). ***الانسجام الصوتي في النص القرآني***. بيروت: دار الرضوان للنشر والتوزيع.

عبد المطلب، محمد. (١٩٩٤م). ***البلاغة والأسلوبية***. بيروت: مكتبة لبنان

عتيق، عمر عبد الهادي. (٢٠٠٩م). «الأسلوبية الصوتية في الفواصل القرآنية». ***المنارة***.ج ١٦. ع ٣.

فاضلي، محمد. (١٣٧٦هـ.ش). ***دراسة ونقد في مسائل بلاغية هامة***. مشهد: دانشگاه فردوسی.

محمد، أحمد سعد. (٢٠٠٠م). ***التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية***. ط ٢. القاهرة: مكتبة الآداب.

الهاشمي، السيد أحمد. (١٣٧٨هـ.ش). ***جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع***. قم: مكتبة سلمان فارسينور.

هنداوي، عبد الحميد. (٢٠٠٤م). ***الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم***. بيروت: الدار الثقافية للنشر والتوزيع.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی